الآداب المعنوية للصلاة، الإمام الخميني: في بيان الدواء النافع في علاج كون الخيال فرار الذي يحصل منه حضور القلب أيضا

الفصل الحادي عشر

في بيان الدواء النافع في علاج كون الخيال فرار الذي يحصل منه حضور القلب أيضا

فاعلم أن كلا من القوى الظاهرية والباطنية من النفس قابل للتربية والتعليم بارتباض مخصوص ، فعين الإنسان مثلا لا تقدر أن تنظر إلى نقطة معيّنة أو إلى نور شديد كنور عين الشمس مدة طويلة من دون أن تغمض ولكن إذا ربّاها كبعض أصحاب الرياضات الباطلة لمقاصدهم فيمكن أن تنظر إلى عين الشمس ساعات مديدة من دون أن تغمض عينه أو يجد فيها تعبا ، وكذلك يمكن له أن ينظر إلى نقطة معيّنة ساعات من دون أي حركة وكذلك سائر القوى حتى حبس النفس فإن في أصحاب الرياضات الباطلة أفرادا يحبسون أنفاسهم مدة زائدة عما هو متعارف عليه :

ومن القوى التي تقبل التربية قوة الخيال وقوة الواهمة فإنهما قبل التربية كطائر فرار ومتحرك بلا نهاية يطير من غصن إلى غصن ويتحرك من شيء إلى شيء آخر بحيث أن الإنسان إذا حاسبها دقيقة واحدة يرى أنها انتقلت مسلسلة إلى أشياء بمناسبات ضعيفة جدا وارتباطات غير متناسبة حتى ظنّ كثير من العلماء أن حفظ طائر الخيال طائعا من الأمور الخارجة عن حيّز الإمكان وملحق بالمحالات العادية ، ولكن الأمر ليس كذلك ويمكن تطويعه بالرياضة والتربية وصرف الوقت بحيث يكون طائر الخيال في قبضته لا يتحرك إلا بإرادته واختياره فيحبسه متى أراد في أي مقصد أو أي مطلب بحيث يكون في ذلك المقصد ساعات .

والطريق العمدة لهذا التطويع هو العمل على الخلاف وطريقه أن الإنسان حينما يريد أن يصلي يهيئ نفسه بأن يحفظ خياله في الصلاة ويحبسه في العمل وبمجرد أن الخيال يريد أن يفّر من يد الإنسان يسترجعه فورا ويلتفت إلى حاله في جميع حركات الصلاة وسكناتها وأذكارها وأعمالها ويفتش عن حاله ولا يدعه بحاله، وهذا في أول الأمر ربما يبدو أمرا صعباً، ولكنه بعدما عمل فيه مدة بدقة وعلاج يصير طائعا حتما ويرتاض على الإطاعة، فأنت لا تتوقع أن تتمكن في أول الأمر من حفظ طائر الخيال في جميع الصلاة فإن هذا أمر غير ممكن ومحال البتة ولعل الذين ادّعوا استحالة هذا الأمر كانوا يتوقّعون ذلك ولكن هذا الأمر لابد أن يكون بكمال التدريج والتأنّي والصبر والتأمل فيمكن أن يحبس الخيال في أول الأمر في عشر من الصلاة ويحصل حضور القلب في عشر منها وبالتدريج إذا كان الإنسان بصدده ويرى نفسه محتاجا إليه فيصل إلى نتيجة أكثر. وشيئا فشيئا يتغلّب على شيطان الوهم وطائر الخيال بحيث يكون في أكثر حال الصلاة زمام الاختيار بيده ، ولا بد للإنسان ألاّ ييأس فإن اليأس هو المنبع للوهن والضعف كله ونور الرجاء في القلب يوصل الإنسان إلى كمال سعادته، ولكن العمدة في هذا الباب هو حسّ الاحتياج الذي هو فينا قليل وان قلوبنا لم تؤمن بأن رأس المال في سعادة العالم الآخر ووسيلة العيش في الأيام غير المتناهية هو الصلاة، نحن نحسب أن الصلاة أمر مفروض علينا ونراها تكليفا وتحميلا .

إن حبّ الشيء يحصل من إدراك نتائجه فنحن نحب الدنيا فقد أدركنا نتيجتها وآمنت قلوبنا بها ولهذا لا نحتاج في اكتساب الدنيا إلى الدعوة والوعظ والاتعاظ .

وانّ الذين يظنّون أن الدعوة النبي الخاتم والرسول الهاشميّ صلى ا عليه وآله جهتين دنيوية وأخروية، ويحسبون هذا فخرا لصاحب الشريعة وكمالا لنبوّته، فهؤلاء ليس عندهم معرفة عن الدين وهم عن مقصد النبوّة ودعوتها غافلون .

إن الدعوة إلى الدنيا خارجة عن مقصد الأنبياء العظام بالكلّية ويكفي في الدعوة إلى الدنيا حسّ الشهوة والغضب والشيطان الباطن والظاهر ولا تحتاج إلى بعث الرسل. إن إدارة الشهوة والغضب لا تحتاج

إلى القرآن والنبي، وإنما الأنبياء بعثوا لينهوا الناس عن التوجّه إلى الدنيا وأنهم ليقيّدون إطلاق الشهوة والغضب ويحدّدون موارد المنافع. والغافل يظن أنهم يدعون إلى الدنيا، أن الأنبياء يقولون إن المال لا يجوز تحصيله كيفما كان. ونار الشهوة لا يجوز إطفاؤها بأيّ نحو بل لا بدّ من إطفائها عن طريق النكاح، وهكذا تحصيل فلا بدّ يكون عن طريق التجارة والصناعة والزراعة مع أن في أصل الشهوة والغضب إطلاقا، فالأنبياء يصدّون طريق إطلاقهما لا إنهم يدعون إلى الدنيا، فروح الدعوة إلى التجارة هو التقييد والنهي عن الأكل بالباطل، وروح الدعوة إلى النكاح هي تحديد الطبيعة والنهي عن الفجور وعن إطلاق قوة الشهوة .

نعم إنهم عليهم السلام ليسوا مخالفين على الإطلاق، فإن المخالفة على الإطلاق مخالفة للنظام الأتمّ .

وبالجملة نحن لما أحسسنا الاحتياج إلى الدنيا وجدناها رأس مال للحياة ومنبعا للّذات نتوجّه إليها ونسعى في تحصيلها فإذا آمنّا بالحياة الآخرة وأحسسنا أنا محتاجون إلى العيش هناك والعبادات كلها والصلاة على الخصوص رأس مال للعيش في ذلك العالم ومنبع لسعادات تلك النشأة فلا محالة نسعى في تحصيله ولا نجد لأنفسنا في هذا السعي والاجتهاد أي تعب أو مشقة أو تكلّف ، بل نكون في صدد تحصيله مع الاشتياق والشوق الكامل ونحصّل شرائط حصوله و قبوله بإقبال من أرواحنا وقلوبنا، فهذه البرودة التي فينا إنما هي من برودة أشعة الإيمان وهذا الوهن الذي نجده إنما هو من وهن أساس الإيمان ولو كانت أخبار الأنبياء والأولياء عليهم السلام وبراهين الحكماء والعرفاء عليهم الرضوان أوجدت في أنفسنا مجرد الاحتمال بالصدق لكان اللازم علينا أن نقوم بالأمر ونجتهد في تحصله بأحسن مما نحن فيه ولكن مع الآلاف من الأسف فإن الشيطان قد تسلّط على باطننا وتصرّف بمجامع قلوبنا ومسامع باطننا وهو لا يدع كلام الحق وأنبيائه وكلمات العلماء ومواعظ الكتاب الإلهي تصل إلى سمعنا ، فسمعنا الآن إنما هو السمع الحيواني الدنيوي ومواعظ الحق تعالى لا تتجاوز الحد الظاهر ، ولا تصل إلى الباطن، وذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومن الوظائف المهمة للسالك إلى ا والمجاهد في سبيل ا أن يرفع اليد بالكلية في خلال مجاهدته وسلوكه عن الاعتماد على نفسه ويكون بجبلته متوجها إلى مسبّب الأسباب وبفطرته متعلقا بمبدأ المبادئ ويتطلب من ذاته المقدسة العصمة والحفظ ويعتمد على تأييد ذاته الأقدس ويتضرع في خلواته إلى حضرته ويطلب إصلاح حاله مع كمال الجد في الطلب منه تعالى فانه لا ملجأ دون ذاته المقدسة والحمد .